٣ ـ ٩/٦/٢٠٠٢م ٢٢ ـ ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٣ هـ

الشروق
AL' SHURUQ

AL-SHURUQ (No. 530/542) 3 - 9/6/2002

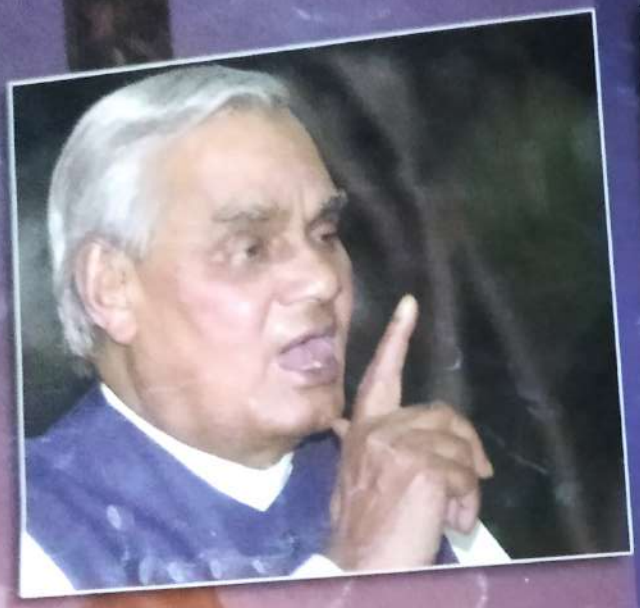

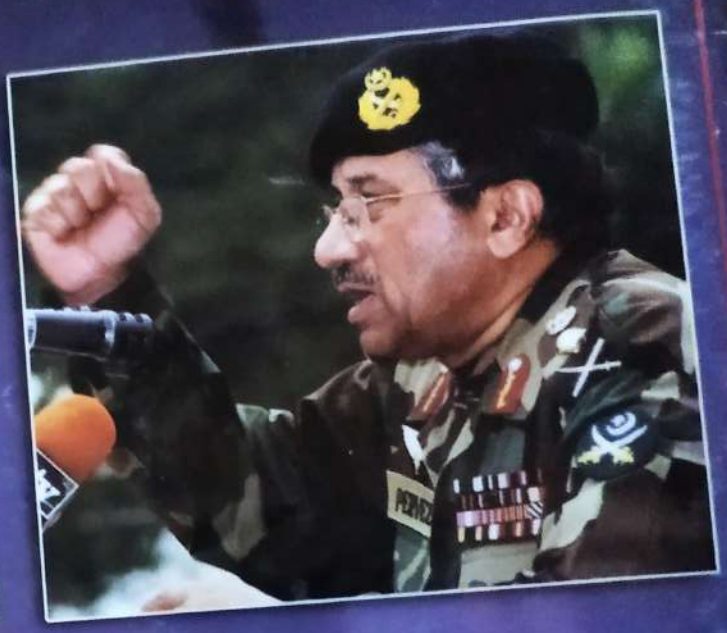

سيناريو «اسرائيلي» لإشعال شبه القارة الهندية

حرب خاطفة تدمر «النووي» الباكستاني

الامارات ٥ دراهم ـ السعودية ١٠ ريالات ـ الكويت ٦٠٠ فلس ـ البحرين ٥٠٠ فلس ـ قطر ٧ ريالات ـ عُمان ٧٠٠ بيسة ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ تونس ٧٥٠ مليماً ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ المغرب ٧ دراهم
لبنان ١٥٠٠ ل.ل ـ سوريا ٢٥ ل.س ـ السودان ١٥ جنيها ـ مصر ٢ جنيه ـ الاردن ٧٥٠ فلساً ـ اليمن ٥٠ ريالاً ـ العراق ٧٥٠ فلساً ـ الصومال ٣٠٠٠ شلن ـ موريتانيا ٩٠ أوقية ـ جيبوتي ٢٥٠ فرنكاً
BELGIUM 100 B.Fr. - CANADA $ 4 C - CYPRUS c £1.00 - FRANCE 15 F.Fr. - GERMANY 7 DM - HOLLAND10 GUILDER - INDIA 30R - ITALY 5000 L - PAKISTAN 25 R.
PHILIPPINES 60 PESO - SINGAPORE s$ 5 - SWITZERLAND 7 SW. Fr. - THAILAND 100 BAHT - TURKEY 200 TL - UK £1.5 - U.S.A. $ 3.

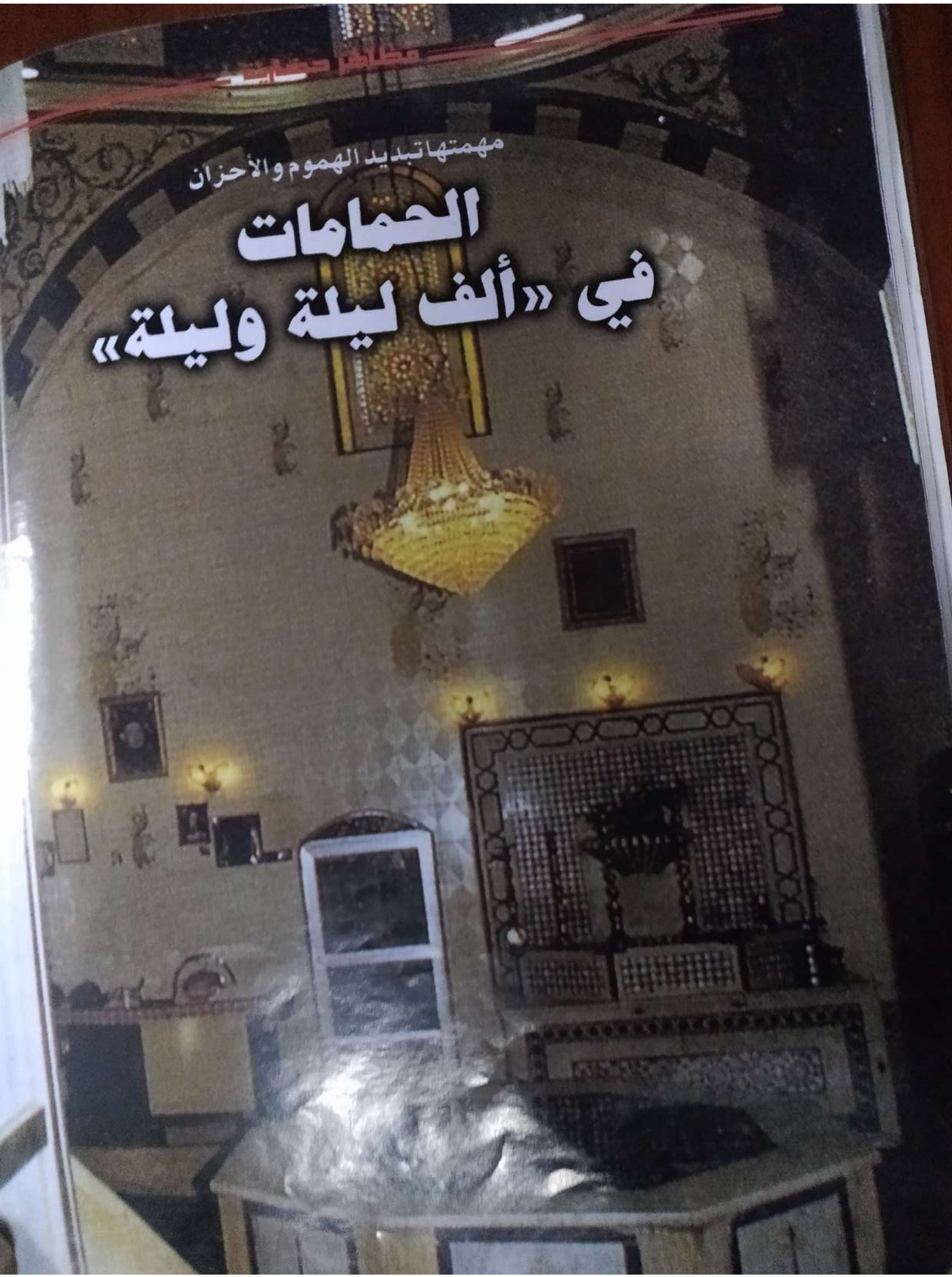

مهمتها تبديد الهموم والأحزان

الحمامات في «ألف ليلة وليلة»

■ محمد عبدالرحمن يونس

يُعتبر الحمَام من أهم الفضاءات المعمارية في المدينة
الإسلامية، كونه يؤدي دوراً وظيفياً في خدمة المسلم،
نظافته وطهارته، تمهيدا لأداء واجب ديني مهم يأخذ طابع القداسة،
وهو فرض الصلاة الذي فُرض على كل مسلم ومسلمة في المدينة العربية
الإسلامية. وقد كثرت الحمَامات «في المدينة الإسلامية كثرة واضحة،
ونظمت سلطات المدينة إنشاءها وما يتصل بذلك من تزويدها بمصادر
الماء وقنوات الصرف».
ويمكن عدّ الحمَّام مظهرا حضاريا من مظاهر الحياة في المدينة
الإسلامية، فالقرآن الكريم والسنة النبوية يحضّان على ضرورة
النظافة الشخصية، والاهتمام بالوضوء والاستحمام واستعمال
السواك، وتقرر السنة النبوية أن على المسلم أن يستحم مرة على
الأقل في الأسبوع، بخاصة في يوم الجمعة. وقد أوصى الرسول
الكريم المسلمين بالاستحمام في مناسبات معينة: بعد الجنابة
والجماع وفي يوم الجمعة، وعند الحجامة، وبعد غسل الميت. ونظرا
لأهمية الحمَامات، فقد حث رجال السلطة في المدينة الإسلامية على
بنائها. وكان بعض الحمَامات في المدينة الإسلامية لا يبنى إلا بإذن
من والي المدينة، ففي مدينة البصرة كان يتعين على من يبني حمَاما
أن يأخذ إذنًا رسمياً من الوالي، حتى يستطيع البناء.
وقد ارتأى المعمار الإسلامي أن تبنى الحمَامات مجاورة
للمساجد، فعلى سبيل المثال: كانت أكثر حمَامات مدينة البصرة
العراقية قائمة بجوار مساجدها. وعلى مستوى التشكيل المعمارى
الهندسي، فقد عمد المعمار الإسلامي إلى إضفاء طابع الأبهة والفخامة
على الحمَامات، إذ أُنشئت «لهذه المرافق واجهات ضخمة وزخارف
فخمة، واستخدمت فيها أحدث أساليب الإنشاء وأدق الحيل الفنية
المعروفة». إلا أنه من الملاحظ أن الأساليب المعمارية في إنشاء
الحمَامات الإسلامية ليست إسلامية صرفا، فهذه الحمَامات مثلها مثل
المنشآت العمرانية الإسلامية الأخرى، كالقصور والمنازل الكثيرة
وقباب المساجد، متأثرة بالأساليب المعمارية للحضارات التي سبقت
الحضارة الإسلامية، وتزامنت معها في آن. فالحمَام الإسلامي وإن
كان مؤسسة اجتماعية صحية إسلامية بالدرجة الأولى، إلا أنه «من
حيث البناء والتقليد متأثر بالحمَام الروماني السابق له».
ولقد حرص المعماريون الإسلاميون على أن تكون الحمَامات
فضاء جماليًا تستريح إليه نفس من يدخله، إذ جعلوها كثيرة
الأضواء، ومرتفعة السقوف، عذبة المياه، طيبة الرائحة. لأن أبخرة
الحمَامات رديئة وكثيرة. ومن مهمة هذه السقوف المرتفعة أن تعين
على تخفيف حر أبخرتها. وقد ذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن
جبير (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، في رحلته المعروفة برحلة ابن جبير، أن
حمَامات بغداد كانت «مطلية بالقار مسطحة به، فيُخيَّل للناظر أنه
رخام أسود صقيل، وحمَامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة
لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة
والكوفة».

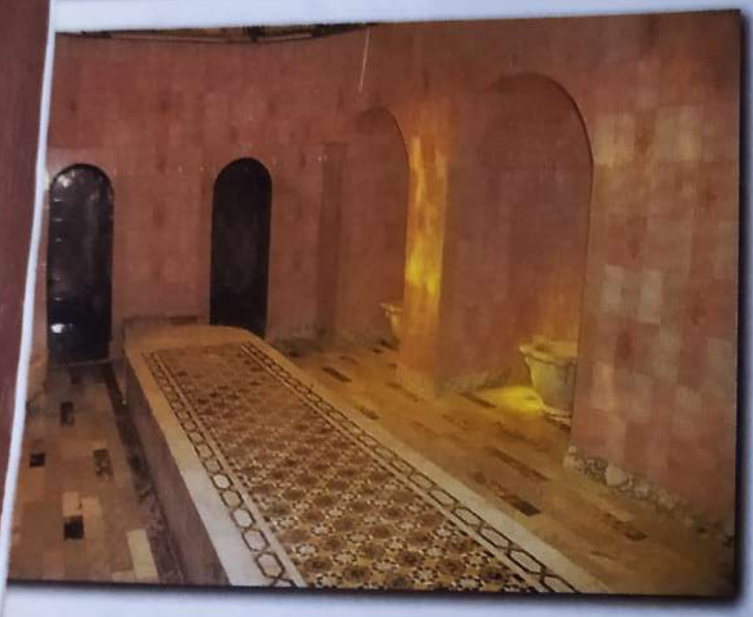

باردة.. دافئة وساخنة

على مستوى التخطيط المعماري الداخلي للحمَامات في المدينة
الإسلامية، فقد كان الحمَام، وبشكل عام، يتألف من ثلاث حجرات:
باردة ودافئة وساخنة. فالباردة تطل على الفناء الخارجي، والدافئة
تتوسط بين الباردة والساخنة، وماؤها أقل حرارة من الساخنة، أما
الساخنة فهي التي يتم الاستحمام بها، وتعلوها قبة قليلة الارتفاع
مثقوبة بعدة ثقوب، يكسوها زجاج ملون، من مهمته أن يُضفي على
الحجرة جواً جمالياً مشعاً، لأن أشعة الشمس تنفذ منه، وتشع في
الحجرة عاكسة ألوان الزجاج المختلفة. وكان الماء الساخن يجري من
القدور الساخنة إلى أحواض المياه الموجودة في الحجرة. وتحتوي
الحجرة الدافئة في بعض الحمَامات على حوضين مائيين، أما
الساخنة ففيها أربعة أحواض وجرن، ومغطس مفروش بالرخام.
لقد كانت الحمَامات في المدينة الإسلامية خاصة وعامة، وكانت
الخاصة مقصورة على أفراد السلطة الأثرياء جداً، إذ من غير المعقول
أن يخرج هؤلاء إلى حمَامات العامة كلما احتاجوا إلى الاستحمام،
نظرًا لمكانتهم السلطوية العالية. وقد اعتاد خاصة الناس، من أفراد
السلطة السياسية، وبعض التجار الأثرياء جداً، على بناء هذه
الحمَامات داخل قصورهم. أما العامة، فإنهم لم يألفوا الاستحمام في
منازلهم، على الرغم من كبر بعضها. ويذكر الفقيه ابن الحاج الفاسي
(أبو عبد الله محمد العبدري، ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) أن «الواحد يشتري
الدار أو يبنيها بنحو الألف. ولا يعمل فيها موضعا للوضوء أو
الغسل».

وتشير الدراسات إلى أن سلطات المدن الإسلامية شادت الحمّامات العامة، نظرا لوظيفتها الدينية من جهة، ونظرا لاستحالة أن يحتوي كل بيت من البيوت العامة على حمام خاص به، لأن الكثير من هذه المدن كانت تقع في مناطق أقرب إلى الجفاف الجغرافي. ولقد درت هذه الحمّامات العامة على مالكيها أرباحا كثيرة، نظرا لكثرة مرتاديها. وها هو أحد أصحاب الحمّامات في مدينة البصرة يصرح بمقدار دخله من حمامه قائلاً: «إني أحصّل من حمامي هذا في كل يوم ألف درهم وطعاما كثيرًا». وقد كثرت الحمّامات العامة في المدينة الإسلامية، وعُرف عن بعض هذه الحمّامات أنها كانت طائفية. فعلى سبيل المثال، شهد العصر الفاطمي (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ/ ٩٠٩ - ١١٧١م) حمّامات خاصة بالمسلمين وأخرى بالطائفة اليهودية، وثالثة خاصة بالنصارى.

وتشير الإحصاءات في الأدبيات التاريخية إلى أن المدينة الإسلامية كانت غاصة بالحمّامات العامة، وتثبت أرقامًا لا يستغرب أن يكون فيها كثير من المبالغة. فيذكر ابن خلدون (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) نقلاً عن الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، أن الحمّامات العامة بلغ عددها في مدينة بغداد، وتحديدا في عهد المأمون ابن هارون الرشيد، خمسة وستين ألف حمام. ويذكر أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (٢٨٣هـ/ ٨٩٧م)، أن الجانب الشرقي في بغداد وحده، كان به في القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، خمسة آلاف حمام. وجاء في تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي أنه كان في مدينة بغداد في القرن الرابع الهجري عشرة آلاف حمام. ويذكر تقي الدين أحمد بن علي المقريزى أن أقل عدد للحمّامات في بغداد، كان في أيام الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٧٩ ـ ١٢٢٥م)، إذ بلغ نحو الألفي حمام. وقد حدد علي بن الحسن بن عساكر (٥٧٠ هـ/ ١١٧٥م) في أيامه، في القرن السادس الهجري، عدد حمّامات دمشق بسبعة وخمسين حمّاما. ويذكر جمال الدين بن حسن بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد (٩٠٩ هـ/ ١٥٠٣م)، أن عدد حمّامات دمشق وأحيائها التى كانت قائمة في عهده تقدر بحدود المائتي حمام، وقد روى المقريزي عن ابن عبد الظاهر أن حمّامات مصر (الفسطاط، والعسكر، وأطلال القطائع) قد بلغت في سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م نحو ثمانين حمامًا، في حين أنها بلغت في عهده (أي عهد المقريزي، ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) ألفا ومائة وسبعين حماما.

إن هذه الأرقام مؤشر واضح على أهمية الحمّامات العامة في المدينة العربية الإسلامية، باعتبارها تؤدي خدمات كثيرة لعدد كثير من أفراد المدينة الإسلامية الفقراء الذين لا يستطيعون بناء حمّامات خاصة في دورهم.

هذا وقد سجل بعض الأدبيات الإسلامية ما قيل في الحمّامات من أوصاف وأشعار، ونقتطف منها ما يأتى: «قيل للفضل الرقاشي صف الحمّام، فقال: نعم البيت الحمّام، يذهب القشاف، ويعقب النظافة، ويهضم الطعام، ويجلب المنام، وينفي الغضب، ويقضى الأرب». ووصف أحدهم حماما خاصا يمتلكه أحد أولاد الوزراء في مدينة بغداد، قائلاً: «فطاف بي (أي سائس الحمّام) وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة، طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإتقان، ثم منها إلى البستان، ثم أراني نحو عشر خلوات، كل خلوة «منها» صنعتها أحسن من صنعة أختها».

فضاء للانتعاش والترويح

بعد هذا المدخل، ننتقل إلى أهم المقاطع السردية في حكايات «ألف ليلة وليلة» التى ذكرت الحمّام، وسجّلت بعضا من أخباره، وأخبار جواريه الحسان، والشخوص الداخلين إليه.

يبدو الحمّام في «ألف ليلة وليلة» جنة مصغرة، وفضاء مملوءا بالمتعة، ولذا كان قبلة لشخوص ألف ليلة وليلة: الملوك والوزراء والأمراء الأثرياء والتجار وكبار القوم. وهو فضاء مهم يكاد يضاهي فضاء القصر، بل يفوقه في بعض الأحيان. ولأنه فضاء من فضاءات المتعة فإنه يجب أن يكون على درجة عالية من الزخرفة الجمالية، وهذه هي حال حمام التاجر الثري (أبو محمد الكسلان). إذ يذكر الراوي أن ضيوف أبي محمد الكسلان دخلوا حمامه. «فرأوا حيطانه ورخامه من الغرائب وهو مزركش بالذهب والفضة وماؤه ممزوج بماء الورد». ولأن حمّامات المدينة الإسلامية عبر تاريخها كانت مزركشة، ومزينة بالصور، فقد امتنع بعض المسلمين المتشددين، في بداية الأمر «عن دخول الحمّامات التي قامت في مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التى تنم عن الكبرياء والجبروت».

إن الحمّام في «ألف ليلة وليلة» فضاء للانتعاش الجسدى، والترويح عن النفس، وهو أكثر الفضاءات التصاقا بالحياة اليومية «وخاصة بأوجه المتعة فيها. إذ يتوقف عدد غير قليل من الحكايات عند الحمّام «العام» الذي يؤكد رواة الحكايات وشخصياتها أنه «زينة المدينة» وشرط أساسي من شروط اكتمالها». وتتعدد وظائفه في «ألف ليلة وليلة»، ولعل أهم وظائفه هي وظيفته التزيينية التجميلية للشخوص: الإناث والذكور، تمهيدا لليلة العرس، بخاصة عند النساء. فالعروس قبل أن تُزف إلى رجلها، يجب أن تدخل الحمّام. وها هي السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، عندما تزف إحدى جواريها، تأمر بدخول هذه الجارية الحمّام. يقول الراوي: «فأرسلت السيدة زبيدة إلى القاضي والشهود وكتبوا كتابي عليها (على الجارية)، وبعد ذلك عملوا الحلويات والأطعمة الفاخرة ومكثوا على هذه الحال عشرة أيام أخرى، وبعد العشرين يومًا أدخلوا الجارية إلى الحمّام».

وللحمام قدرة سحرية على جعل المرأة المستحمة فيه جميلة مشعة، وجذابة. ومن هنا نفهم لماذا كان رجال السلطة في «ألف ليلة وليلة» يلجأون إلى إدخال الجارية الحمّام وتزيينها، قبل الصعود بها إلى قصر السلطان، وإهدائها له تقربًا منه، وكسبًا لمودته، واتقاء لشره. يقول أحد النخاسين إلى أحد وزراء «ألف ليلة وليلة»: خلها (أي الجارية) عندك في القصر عشرة أيام حتى تستريح فيزداد جمالها. ثم أدخلها الحمّام واغسلها غسيلاً جيدا وألبسها أحسن الثياب واطلع بها إلى السلطان، فيكون لك في ذلك الحظ الأوفر، فتأمل

الوزير كلام النخاس فوجده صوابًا».

لقد كان دخول الجواري الحمّام واجبًا مفروضًا عليهن، وذلك قبل أن يدخلن مقاصير ملوك «ألف ليلة وليلة» وأمرائها، ليشعلن طقوس المسرات لهؤلاء الملوك والأمراء. وها هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة يأمر خدمه وجواريه «أن يقوموا بخدمتها (أي خدمة الجارية المُحتال عليها والمجلوبة إلى قصره) ويدخلوها الحمام ويجهزوا لها الحلْى والحلل(...)، ثم ألبسوها حللاً من ملابس الملوك، ووضعوا في عنقها عقدًا من الجوهر، وساروا بها إلى الحمّام، وخدموها ثم أخرجوها من الحمَام كأنها بدر التمام. ولما وصلت إلى الملك سلمت عليه وقبلت الأرض بين يديه، فحصل للملك بها سرور عظيم». وها هو أحد تجار الرقيق، وبعد أن يشتري «نزهة الزمان» يدخلها الحمّام، ويحضر لها إحدى البلانات لكي تقوم بتجميلها، أملاً في أن يبيعها بسعر باهظ إلى أحد الملوك أو الأثرياء. يقول الراوي عن هذا النخاس: «ثم أدخلها الحمّام (أي أدخل نزهة الزمان) وأتى لها ببلانة، وقال لها: إذا فرغت من غسل رأسها فألبسيها ثيابها(...) فلما فرغت البلانة من تنظيفها ألبستها ثيابها(...) ثم أمرها التاجر أن تتزين بأحسن الزينة. ومشت ومشى التاجر قدامها، فلما عاينها الناس بهتوا في حسنها، وقالوا تبارك الله أحسن الخالقين، هنيئا لمن كانت هذه عنده».

مراكز تجميل متخصصة

وعبر تاريخها الطويل، شهدت الحمّامات في المدن الإسلامية تطورًا حولها إلى مراكز تجميل متخصصة، فبعد أن تدخل المرأة المقصورة الملحقة بالحمّام، تمضي إلى غرفة البخار، ثم تأتي بعدها المدلكة أو البلانة لتنظيفها وتدليكها. إذ تقوم هذه البلانة بإزالة الشعر، مستعملة بذلك مرهما فعالاً مكونا من الزرنيخ الأصفر والشمع، وأحيانا تكتفي بالسكر المنعقد بالليمون. فالمرأة في المدن العربية الإسلامية، ومنها بطبيعة الحال كثير من مدن «ألف ليلة وليلة»، كان عليها أن تمثل أمام البلانة، لكى تدلكها وتزيل عنها الشعر. ومن هنا ليس غريبا أن يندفع بعض الفقهاء في المدينة الإسلامية، للنفور من الحمّام، واعتباره بؤرة للفساد. فجلال الدين عبد الرحمن السيوطى (٩١١هـ/١٥٠٥م) قال إنه مكروه للنساء. أما الفقيه ابن الحاج، فقد نصح معاصريه من العلماء بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمام «لما اشتمل عليه هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة». ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخلن الحمّام إلا بمئزر. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخلن حليلته الحمّام. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدن على مائدة يشرب عليها الخمر، أو يدار عليها الخمر». أما الشاعر الفضل الرقاشي، بعد ما كان قد مدح الحمّام، كما أشير إلى ذلك سابقا، عاد وعدّه هاتكًا للأسرار، وحارقا كالنار، حين ذمه قائلاً: «بئس البيت الحمّام، يهتك الأستار، ويؤلّف الأقذار، ويحرق كالنار».

إذا كان العرف الاجتماعي في المدينة الإسلامية ألف دخول النساء الحمّام قبل أن يدخل أزواجهن عليهن، فإنه ألف أيضًا أن يدخل الرجال الحمّام ليستحموا ويتزينوا استعدادًا لطقوس الزوجية. وفي حكايات «ألف ليلة وليلة» كانت المرأة السلطوية تطلب من خدمها أن يأخذوا عشيقها إلى الحمّام قبل لقائها، ليتهيأ على أكمل وجه جمالي، استعداداً لأن تشعل له البخور والمجامر. فزمرد الجارية، وبعد ما تتوجها المصادفات السحرية ملكة على إحدى المدن، وبعد ما تلتقى برجلها علي شار بعد سنوات طويلة، تأمر بأن يدخلوه الحمّام، ويزينوه، ويلبسوه أفخر الملابس. يقول الراوي: «ثم أمرت الحاجب أن يمضي به إلى الحمّام ويلبسه بدلة حسنة من ثياب الملوك ويركبه فرسًا(...) ويمضى به بعد ذلك إلى القصر».

وقد لعب المفهوم الإسلامي دورًا أساسيًا في ضرورة التهيئة التي تقرب بين المحبين، فعلى الزوجة المطيعة والمخلصة، في المفهوم الإسلامي، أن ترضي زوجها كليا، وأن تهيئ له نفسها وجسدها أحسن تهيئة، وكان على الرجل أيضًا أن يستعد لمثل هذه التهيئة أيضا، حتى يجد لديها قبولاً واستعدادا نفسيا وفيزيولوجيا، وبالتالي يجعلها تحبه وتقتنع به بعلاً ولا تخونه في فراشه. يقول أحد الفقهاء: «... نعم إن التهيئة، مما يزيد في عفة النساء، ولقد تركت النساء العفة بترك أزواجهن التهيئة. ثم قال: أيسرّك أن تراها على ما تراك عليه إذا كنت على غير تهيئة؟ قلت لا، قال: فهو ذلك، ثم قال من أخلاق الأنبياء (عليهم السلام): التنظيف والتطيب وحلق الشعر وكثرة الطروقة» وسئل رسول الله: ما زينة المرأة للأعمى؟ فقال: «الطيب والخضاب، فإنه من طيب النسمة». وتشير حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان» إلى أن حمّامات «ألف ليلة وليلة»، مثلها مثل حمّامات المدينة الإسلامية في أوج ازدهارها، كانت فضاء تجميليًا بالنسبة الى الرجال أيضًا. إذ يتم بها تجميل الرجال وتنظيفهم وإزالة الشعر عن أجسادهم. وهي بهذا تؤدي للرجال الوظيفة التى تؤديها للنساء. فالوقاد في الحكاية يأخذ الأمير ضوء المكان، الذي كان تائها وغريبا في مدينة القدس، إلى الحمّام ليزيل عنه هيئته الرثة، وينظفه. يقول الراوي: «فمضى إلى السوق (أي الوقاد) وأتى له بمكارى وأركبه حمارًا(...) ثم دخل معه الحمّام وأجلسه في داخله ومضى إلى السوق واشترى له سدرًا ودُقاقًا، وقال لضوء المكان يا سيدي بسم الله أغسل لك جسدك. وأخذ الوقاد يحك لضوء المكان رجليه وشرع يغسل له جسده بالسدر والدقاق، وإذا ببلان قد أرسله معلم الحمّام إلى ضوء المكان، فوجد الوقاد يحك رجليه(...) فشرع البلان يحلق رأس ضوء المكان، ثم اغتسل هو والوقاد».

إذا كان من مهمة البلان في الحمّامات الإسلامية، في «ألف ليلة وليلة»، تنظيف المستحم وإزالة الشعر عن جسمه، يبدو أنه كان لكل حمام في المدينة الإسلامية مدلك خبير في تدليك عضلات الجسم. ومع زيادة إقبال الرجال على الحمّامات ألحق بها «حلاق أو حجام، خبير في حلاقة الشعر، بوساطة أمواس مصقولة لامعة مضمخة بالطيب، وكان يبذل قصارى جهده للعناية باللحى، فعليه غسلها وتهذيبها وصبغها وتطييبها».

من جهة أخرى، ليس غريبًا أن يصف الراوي وجه الصبية الخارجة من الحمّام، بأنه كالقمر في ليلته الرابعة عشرة، هذا إذا عرفنا مدى مهارة مزينة الحمّام، وخبرتها العميقة في فن تجميل [illegible]زبونات الحمّام، بعد انتهائهن من الاستحمام. فقد شهدت [illegible]ينة الإسلامية مزينات ماهرات في تجميل وجوه النساء، إذ كان وجه المرأة المستحمة يدلك بعناية، ثم يزال الشعر المتناثر عليه،

ثم تبدأ التزيين بتبييض الأسنان بقشر البيض أو مسحوق الكربون، ثم تقوم المرأة بمضغ قشر الجوز أو الثامول لاحتوائه على رائحة طيبة ولقدرته على شد الشفاه والحنك بفعل طبيعته القابضة، وقدرته على أن يُضفي على اللثة لونا قرمزيا لطيفا. ثم تنثر المزينة على وجه المرأة مسحوق الأرز الممزوج ببياض البيض، ثم تقوم بنزعه، وبعد ذلك تضع مسحوقا قرمزيا لإضفاء لون زهري على الوجنتين، ثم تزجّج المزينة حاجبي المرأة بمسحوق من البخور والقار والزرنيخ الأصفر. وأخيرًا يأتي دور العينين، إذ تُكحلان بالكحل الأصفهاني. وبعد هذه العملية التجميلية المعقدة، تضفي المزينة آخر اللمسات الجمالية على وجه المرأة، بأن تستخدم مسحوقا معطرا، وتشكل به نقاطا جميلة، أو رسوما خاصة على الجفون أو على جانب الأنف، وأحيانا في وسطه، وعادة ما يُنثر على الوجنتين. إن للحمام وظيفة إعلامية مهمة بالنسبة الى النساء الجميلات الداخلات إليه، وللغرباء الذين يقصدونه، لأنه فضاء مُباح لاستعراض جمال المرأة أمام زميلاتها، والتباهي عليهن بهذا الجمال، فعندما كانت تدخل المرأة المتفوقة جماليا، كان يشيع خبر جمالها في أنحاء المدينة، فيعشقها الناس، وتُحاك الحكايات حولها، وترغب النساء المهمات في المدينة في مشاهدتها. وهذا ما حدث مع «منار السنا» زوجة الصائغ حسن البصري التي تفوق نساء بغداد جمالاً، باعتبارها ابنة ملك جزائر واق الواق. فما إن تدخل هذه السيدة الحمّام، وتتأملها نسوة الحمّام، حتى ينقلن أخبارها إلى بيوت بغداد. يقول الراوى: «وقامت وهيّأت حوائج الحمّام التي تحتاجان إليها، وأخذتها (أي أم زوجها حسن البصري) وراحت إلى الحمّام، فلما دخلت صارت النساء جميعًا ينظرن إليها ويسبحن الله عز وجل، ويتأملن في ما خلق من الصورة البهية، وصارت كل من جاءت من النساء الى الحمّام تدخل وتتفرج عليها، وشاع في البلد ذكرها وازدحمت النساء عليها وصار الحمّام لا ينشق من كثرة النساء فيه».

ووفقا لمنطق التجسس الذي يتحكم في معظم العلاقات الإنسانية، في مدن «ألف ليلة وليلة» بكل فضاءاتها، يصل خبر جمال منار السنا إلى قصر الخليفة هارون الرشيد بوساطة تحفة العوادة، جارية السيدة زبيدة. فما كان من السيدة زبيدة إلا أن أرسلت في طلب هذه المرأة التحفة الجميلة. تصف الجارية تحفة العوادة منار السنا لسيدتها زبيدة قائلة: «يا سيدتى رأيت أعجوبة ما رأيت مثلها في الرجال ولا في النساء، وهى التى شغلتني وأدهشت عقلي وحيرتني حتى أنني ما غسلت رأسي فقالت: ما هي يا تحفة؟ فقالت يا سيدتي رأيت جارية في الحمّام(...) ما رأى أحد مثلها، لا قبلها ولا بعدها، وليس مثل صورتها في الدنيا بأسرها». وعندما تحضر منار السنا إلى قصر الخليفة هارون الرشيد، لا تستطيع السيدة زبيدة، أمام هذه المرأة الجميلة، ضبط دهشتها وإعجابها الشديدين، فتقوم وتضم المرأة إلى صدرها تقديرا لجمالها الأخاذ، مع ملاحظة أن نساء الخليفة والسلطة في «ألف ليلة وليلة» قلّما يتنازلن عن مكانتهن السلطوية، ويحتضن المرأة القادمة إلى قصورهن، سواء أكانت جارية، أم وصيفة غريبة، أم ضيفة عالية الشأن.

ويبدو أن السلطة السياسية في مدن «ألف ليلة وليلة» كانت تبث الجواسيس في الحمّامات، لينقلوا لها ما يجري داخلها، وليبحثوا لها عن الأشخاص المطلوبين، من خلال علامات فارقة على أجسادهم. ففي حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيّات»، يُصاب الملك كرزدان بمرض الجذام الخطير، ويعجز أطباء المملكة جميعهم عن شفائه، فيستدعي المنجمين لاكتشاف سر مرضه. ويؤكد هؤلاء، من خلال كتب التنجيم، أن شفاءه يكون على يد شخص يدعى «حاسب كريم الدين»، ولا يمكن العثور عليه إلا في فضاء الحمّام. عندها يبث وزير الملك جواسيسه في حمّامات المدينة جميعها ليكتشفوا الشخص المطلوب وهو في حالة استحمام، ثم يأخذوه إلى قصر الملك. يقول الراوي: «واجتمع عمال الحمّام وكل من كان فيه على حاسب كريم الدين، وتكاثروا عليه، وأدخلوه الحمّام، فبمجرد دخوله الحمّام وجلوسه بجانب الحائط وسكب الماء على رأسه، أقبل عليه عشرون رجلاً وقالوا له: قم أيها الرجل من عندك، فأنت غريم السلطان».

وعلى مستوى البنية الحكائية في «ألف ليلة وليلة»، فإن الحمّام يلعب دورا وظيفيا ليكون أداة مساعدة على تنمية الوحدات السردية، ومن ثم ارتحالها إلى مدن أخرى تمهيدا لبناء أحداث حكائية جديدة، كما في حكاية «حسن الصائغ البصرى»، فدخول منار السنا الحمّام في هذه الحكاية كان سببا لنمو الوحدات السردية، وانتقالها إلى قصر الخلافة في بغداد. وكان في ما بعد سببا لانتقال منار السنا إلى بلادها (جزر واق الواق). ثم أدى هذا الدخول إلى ارتحال زوجها حسن البصرى إلى واق الواق للبحث عن زوجته، وبالتالى أدى هذا الارتحال إلى تشكيل وحدات حكائية جديدة، وأحداث تخيلية مفعمة بالسحر والغرابة، وحروب الجان والسحرة في ما بينهم، في «واق الواق»، ومن هنا يمكن القول: إن على كل حكاية من حكايات الأدب الشعبى «أن تخلق جديدا في داخلها بالذات، لكى تستطيع شخصياتها أن تعيش»، فالدخول إلى الحمّام في الحكاية السابقة، هو الذي شكل الوظائف الجديدة التى تقوم بها الفضاءات المكانية الجديدة في «واق الواق»، وهو الذي شكل الأبطال الثانويين الجدد الذين ساعدوا، حسن البصرى، وقدموا له كل الوسائل المساعدة للوصول إلى هذه الفضاءات، لأن الحكاية بكل فضاءاتها المكانية «لم تُصنع قط إلا من الوظائف. فكل شىء فيها يحمل دلالته علي مستويات مختلفة».

الحمامات تراث مستمر

ويكون الحمّام في بعض حكايات «ألف ليلة وليلة» فضاءً صحيًا يدخله الشخوص، احتفاءً بالشفاء من الأمراض الطويلة والمزمنة. فقد تعارفت المدن الإسلامية في ألف ليلة وليلة، على ان تحتفي بشفاء أبنائها المرضى، من الملوك والأمراء والتجار، وبقية أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى، وذلك بأخذهم إلى الحمّام تعبيرًا عن فرحتها بشفائهم، وتفاؤلاً بهذا الشفاء. ففي حكاية «هارون الرشيد مع الصياد»، يقول أحد أبطال الحكاية لهارون الرشيد عن زوجته: «فلما مرضت مرضا شديدا فأحضرت لها الأطباء حتى حصلت لها العافية، فأردت أن أدخلها الحمّام».

تبديد الهموم والأحزان

إن للحمام في ألف ليلة وليلة قدرة على تبديد الهموم والأحزان، فهو فضاء تدخله الشخوص، في بعض الأحيان، لتنسى مصائبها، وتستعيد توازنها النفسى مع ذاتها، والا[illegible] مع مجتمعها وإلى

الحمّام تدخل المرأة كئيبة ورثة، وتخرج منه مشرقة، وقد «ظهرت عليها آثار النعمة». وها هي قوت القلوب تُدخل زوجها غانم بن أيوب، وأمه، وأخته فتنة، أحد حمّامات بغداد. وعندما يخرجون يبدون وقد تبددت أحزانهم، و«رُدّت إليهم أرواحهم».

وفي حكايات «ألف ليلة وليلة» تقترح العجائز على العشّاق المفجوعين في حبهم، بعد ما فقدوا عشيقاتهم، أن يستعيدوا توازنهم العاطفي بالذهاب إلى الحمّام. وها هي إحدى عجائز الليالي تطلب من علي شار أن يدخل الحمّام، ويقوي عزيمته، بعد أن خطف الشطار جاريته زمرد التي أرقته طويلاً، نظرًا لمحبته الشديدة لها. وهنا يصبح الحمام محفزًا سحريًا لهؤلاء الداخلين اليه، وقادرا على إضفاء البهجة عليهم، ومدّهم بالقوة، والعزيمة الجديدة، التي تدفعهم للانتصار على فجائعهم. ويصبح دخول الحمّام في بعض الأحيان إيذانًا بانتهاء فترة العزاء والحزن على الأهل والأحباء الذين أخذهم هازم اللذات ومفرق الجماعات، بمفردات رواة «ألف ليلة وليلة». ففي حكاية «تودّد الجارية»، يحزن أبو الحسن على وفاة والده التاجر البغدادي الثري حزنا شديدا، لا يذكر الراوي اسما له. فيقيم العزاء في بيته أياما وليالى طويلة، فيدخل عليه أصحابه ويأخذونه إلى الحمّام، ويقدمون له الطعام والشراب والجوارى الجميلات، وبذلك ينهي طقس الأحزان ليبدأ طقس المسرات.

ويتزامن دخول الحمّام في بعض حكايات ألف ليلة وليلة مع طقوس الاحتفاء بلقاء الأحبة والأصدقاء والأقرباء الذين باعدتهم الشخصيات الشريرة. ففي حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، يلتقى ساعد ابن الوزير فارس مع صديقه الحميم سيف الملوك ابن الملك عاصم بعد غياب طويل، واحتفاءً برجوع فارس يأخذونه إلى الحمّام، ويلبسونه الثياب الفاخرة. وفي الحمام يسترخي التجار المنكوبون، بعد أن تكون الرياح الهوجاء قد مزّقت أشرعة مراكبهم، وأغرقت بضائعهم، فهو بالنسبة إليهم فضاء للأمل والرجاء ونسيان المصائب والخسائر المالية، وإعادة المسرّات. فالسندباد البحري في السفرة السابعة تقذفه الأنواء إلى مدينة عظيمة بعد أن تحطمت سفينته، فينتشله سكانها، ويأخذه شيخها إلى الحمّام. يقول السندباد: «فسقطت بينهم وأنا مثل الميت من شدة الجوع والسهر والخوف، فتلقاني من بين هؤلاء الجماعة رجل كبير السن وهو شيخ عظيم، ورحب بي ورمى عليّ ثيابا كثيرة جميلة، فسترت بها حالي. ثم أخذني وسار بي وأدخلني الحمّام وجاء بالأشربة المنعشة والروائح الزكيّة».

إن الحمّام فضاء جمالي حر لأنه يمنح الحرية لبعض النساء، فهو يسهم في خروج المرأة من فضاء دار زوجها، ومن رتابته، ومن علاقاته المحكومة بمجموعة من القيم والضوابط العائلية، إلى فضاء الأسواق بحركتها التجارية، وصخبها الاجتماعى، وانفتاحها على شرائح اجتماعية عديدة، لأنه كان على النساء المتجهات إلى الحمّام في المدينة الإسلامية، أن يدخلن الأسواق حتى يصلن إلى الحمّامات، لأن هذه الحمّامات كانت تقع وسط هذه الأسواق، وبجوار المساجد.

وهناك في الحمّام تتحرر المرأة من عبء الضوابط والأعراف السائدة في منزل زوجها، إذ تسترخي وسط هالات من البخار، وتفرد روحها أحلامها العريضة صوب كل ما طاب.

ومن هنا، فقد وعى بعض رجال «ألف ليلة وليلة» خطورة الخروج من المنزل إلى الحمّام، فحذروا نساءهم، ومنعوهن من الذهاب إليه، كما في حكاية «حسن الصائغ البصرى»، إذ يمنع حسن البصري زوجته منار السنا من الخروج من منزلها والذهاب إلى الحمّام، ويوصي والدته بان لا تسمح لها بذلك.

وعمومًا يبقى الحمّام فضاءً أساسيا وحضاريا مهما في مدن «ألف ليلة وليلة». ونظرا لاهميته، فإنه يجب أن تتوافر فيه عدة شروط. وها هي تودّد الجارية تحدد بعضًا منها عندما يسألها الطبيب المتحن، وبحضرة الخليفة هارون الرشيد: «فاي الحمّامات أحسن؟». فتجيبه: «ما عذب ماؤه واتسع فضاؤه وطاب هواؤه. بحيث تكون أهويته أربعة خريفي وشتوي وربيعي وصيفي». وحتى تتأكد فاعليته العلاجية صحيا، يجب ألا «يدخله شبعان»، على حد تعبير تودّد الجارية. وهذا الرأي يتفق مع رأي بعض الفقهاء الإسلاميين الذين يؤكدون أن «دخول الحمّام على الشبع» يعدّ «من المهلكات». ويبدو أن على المستحم أن يكون دقيقا في مراعاة شروط دخول الحمّام والخروج منه حتى لا يصيبه الأذى والمرض. ففي حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس»، يدخل الوزير الفضل بن خاقان، والد علي نور الدين، الحمّام، ويخرج منه مبللاً بالعرق، فيصيبه الهواء، ويلزم الوساد، ويطول به السهاد، ويتسلل إليه الضعف، ويشهق شهقة ويموت. وإذا كان الراوي يريد أن يقول إنه على المستحم ألا يسرع بالخروج من الحمّام، وهو عرقان، بل يجب عليه أن ينتظر في بهو الحمام الخارجى فترة زمنية حتى يجف، وحتى لا يتعرض لتأثير التباينات الحرارية الكبيرة، بين فضاء الداخل المشبع بالحرارة، وفضاء الخارج الأقل حرارة، فإن هذا الرأي يبدو صائبًا على مستوى الصحة الجسدية، لأن هذه التباينات الحرارية التي يتعرض لها الجسم تسهم في فقدانه لمناعته وقدرته على مقاومة الأمراض. فعلى المستحم، وحتى لا يُؤذى من هذه التباينات الحرارية، أن يتدرج في الخروج من الحمّام، وذلك من الغرفة الساخنة إلى الغرفة الباردة المسماة «غرفة بيت أول»، وهناك في الغرفة الباردة يقضي بعض الوقت فلا يغادر الحمّام مباشرة إلى الفضاء الخارجي معرضا نفسه للهواء البارد. وعلى الرغم من مهاجمة الفقهاء الإسلاميين المتزمتين للحمام، واعتباره فضاء هاتكا للأسرار، ومفسدًا لأخلاق النساء، وكاشفا للعورات، فإنه يبقى في رأي بعض المؤرخين والباحثين فضاءً لا غنى عنه في حياة المدينة الإسلامية، فهو من أهم اللذات الاربع في حياة المسلم. وإذا كانت الحياة مبهجة في المجتمعات العربية، على الرغم من مآسي مواطنيها، واستبداد خلفائها وسلاطينها، فإن الفضل في وجود هذه البهجة يعود إلى الحمّام.

ويشير بعض المؤرخين إلى أن الحمّام كان فضاءً ممتعا للهو، إذ يلعب فيه الولاة ويتسابقون مع خدمهم في الجري.

هذه أهم وظائف الحمّامات في المدينة الإسلامية وملامحها، كما جاءت في بعض نصوص «ألف ليلة وليلة» الحكائية، وبعض نصوص التراث العربي. وإذ أكتفي بدراسة هذه الوظائف والملامح، فلأنها القاسم المشترك بين جميع حكايات «ألف ليلة وليلة»، التى احتفت بالحمّام وشكلته، واعتبرته فضاءً مهما لنمو أحداثها وحركة [illegible] السردية. ■■

الحمامات الحديثة أقل بهاء وفخامة من القديمة